الفصل الرابع

الدور الاجتماعي لعلماء الأزهر في أفريقيا

1 - المشاركة في الاحتفالات الدينية.

2 - المساهمة في مقاومة البدع والخرافات والأمراض الاجتماعية.

3 - المساهمة في تطوير أساليب الحياة اليومية.

4 - علاقة العلماء الأزهريين بالطبقات الاجتماعية الأفريقية .

5 - الدور الاجتماعي للأزهر بعد عصر المماليك .

1 - المشاركة في الاحتفالات الدينية

تنوعت الاحتفالات الدينية الإسلامية في أفريقيا ، ما بين احتفالات سنوية مثل الاحتفالات بالعيدين وبليلة القدر[1] ، والمولد النبوي الشريف ، واحتفالات أسبوعية مثل احتفال يوم الجمعة ، كما تنوعت الاحتفالات الأخرى ، مثل الاحتفالات التي كانت تُقام بصفة شبه يومية في قصور السلاطين والحكام ، كما كانت رحلات الحج تعتبر من الأيام المشهودة في القارة.

وقد اهتم المسلمون في أفريقيا بالأعياد الدينية ، شأنهم في ذلك شأن جميع المسلمين في شتى بقاع الأرض ، وقد تميزت الاحتفالات الدينية التي كانت تُقام في القارة بطابع خاص ، من حيث طريقة الاحتفال ومن حيث المشاركة في الاحتفالات.

ففي الاحتفالات الخاصة بالعيدين والتي كانت تقام في بلاد الشمال الأفريقي ، كان الناس يحتشدون في الطرقات وهم مرتدون أفخر الملابس ، ثم يحضر السلطان وهو تُمتطى صهوة حصانه ويسير أمامه جميع الأمراء[2] والقواد والخدّام على أقدامهم ، ثم يحضرون صلاة العيد ، وبعد انقضاء الصلاة ينصرف كلٌّ إلى منزله .

بينما نجد في منطقة الغرب الأفريقي أن يوم العيد يتميز بطابع خاص ، حيث كان السلطان يخرج أيضاً متطيباً ظهر جواده ، ومرتدياً الطيلسان الذي كان يرتديه في العيد فقط ، ويبدأ الجمع في التكبير والتهليل ، ثم تُنصَب خيمة للصلاة بعد وصول السلطان ، ثم يؤدي الجميع الصلاة ويستمعون للخطيب[3] ويمتد الاحتفال حتى العصر . وبعد العصر يجلس السلطان ويأتي رجال الحراسة بكافة أنواع الأسلحة للاستعراض أمام السلطان ويجلس حكام الأقاليم والقاضي والخطيب ثم يأتي الترجمان بنسائه الأربعة ويُنصب له

---

1 - ابن بطوطة: الرحلة ، ص 445.

2 - المصدر السابق ، ص 20.

3 - نفسه ، ص 447 .

كرسي يجلس عليه ويعزف بآلة موسيقية ويغني أغاني للسلطان ، ثم تقام ألعاب بهلوانية تسلية للسلطان كما كانت الأشعار تُلقى بين يدي السلطان وكان الشعراء يرتدون ملابس على هيئة طيور ، ويلقون بأشعارهم التي كانت عبارة عن قصائد تحتوي على مواعظ . [1]

أما عن الاحتفال يوم الجمعة ، فقد كان يجد اهتماماً كبيراً في كافة الممالك الإسلامية . وقد وصف لنا ابن بطوطة صلاة الجمعة في سلطنة مقدشيو حيث ذكر طرق الاحتفال من حيث خروج السلطان في هذا اليوم لأداء فريضة الصلاة في موكب فخم ، حيث كانت تُضرب فوق رأسه القباب الحريرية الملونة ، وكيف كان يتوجه للمسجد وخلفه تُرفع أربع مظلات ملوّنة على كل مظلة طائر من ذهب ، كما كانت تُضرب الطبول بين يدي السلطان وتسير الجنود أمامه وخلفه وبصحبته القاضي والفقهاء[2]. كما ذكر ابن بطوطة مدى حرص أهالي القارة الأفريقية على أداء صلاة الجمعة ، ووضح مدى حرص الفقراء على نظافة ملابسهم لدرجة أنه من كان لا يملك إلا ثوباً واحداً اهتم بغسله ليحضر به صلاة الجمعة [3] .

كما كان شهر رمضان يجد احتفالاً كبيراً به ، خصوصاً في ليلة السابع والعشرين من رمضان حيث كانت توزع الصدقات فيها على الفقراء ، وكان يحضر الاحتفال بهذه الليلة السلاطين والعلماء والعامة ، وكانت تجمع بين هذه الاحتفالات خصائص مشتركة وهي عبارة عن إلقاء الخطب والمواعظ وعرض الحاجيات على السلاطين [4]

وقد كان العلماء الأزهريون يشاركون في هذه الاحتفالات وكانت مكانتهم فيها تقع بجوار السلاطين والأمراء وإن كانت المصادر لم تذكر أسماء على وجه التحديد ، لكن الشيء الذي يجعلنا ننسبهم إلى الأزهر هو كثرة عدد العلماء الذين تلقوا التعليم في الأزهر وكانوا أصحاب مكانة عالية . وكان هؤلاء العلماء الأزهريون يقومون بالدور الرئيسي في

---

1 - ابن بطوطة : الرحلة ، ص 448.

2 - المصدر السابق ، ص 484.

3 - نفسه ، ص 450.

4 - نفسه ، ص 445، 447.

تلك الاحتفالات ، فهم الذين يقومون بإلقاء الخطب والمواعظ في أيام العيدين ، وصلاة الجمعة ، وكان يسمح لهؤلاء العلماء الأزهريين تقديراً لهم ولدورهم بارتداء الملابس المشابهة لملابس هؤلاء الحكام ويسمحون لهم بمرافقتهم في مواكبهم [1] كما سبق القول .

ومن الاحتفالات التي كانت تجد لها صدى واهتماماً من قبل الحكام والمحكومين رحلة الحج ، حيث كان يتم الاحتفال بها والتجهيز لها قبلها بفترة ، ثم يحتفل لها أيضاً بعد أداء هذه الفريضة . وقد تركت لنا رحلات الحج التي كان يقوم بها الحكام والرعية لوحة خالدة تبين لنا مدى الاهتمام بهذه الشعيرة من شعائر الإسلام .

ولعل رحلة حج (منسا موسى) سلطان مالي من أشهر الرحلات التي قامت بذكرها كتب التاريخ [2] حيث قام موسى بأداء هذه الفريضة في عام 725 هـ / 1324م وصحب معه في هذه الرحلة عدداً كبيراً يصل إلى الآلاف، [3] من أفراد الحاشية ومعهم علماء الأزهر من أبناء بلده ، كما حمل معه كمية كبيرة من الذهب كانت تعادل حمل أربعين بغلاً [4] ، وقد كان منسا موسى جواداً كريماً حيثما حل فكان يقوم بإهداء الذهب ، مما كان له الأثر في أن يقع في شَرَك الديون ، مما جعله يضطر للاقتراض من بعض التجار المصريين لكي يستطيع العودة بعد ذلك إلى بلاده . [5]

كما أن العلماء الأزهريين لم يتوقف دورهم على مجرد إلقاء الخطب والمواعظ والمشاركة في الاحتفالات الدينية فقط ، بل ساهموا في مقاومة الأمراض الاجتماعية التي كانت منتشرة بين السكان في ذلك الوقت بكافة الوسائل التي كانت متاحة لهم .

---

1 – ذكر ابن بطوطة أنه في صلاة الجمعة في سلطنة مقدشو كان يسير الجميع حافياً عدا السلطان والعلماء : الرحلة، ص 170 ، 171 .

2 – من كتب التاريخ التي ذكرت وتحدثت عن رحلات الحج التي قام بها الملوك وخصوصاً رحلة الحج التي قام بها منسا موسى كتاب المقريزي : التبر المسبوك .

3 – السعدي : تاريخ السودان ، ص 7.

4 – محمود كعت : الفتاش ، ص 36.

5 – مادهو بانيكار: الإسلام والوثنية ، ترجمة أحمد فؤاد ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، 1998 ، ص 105.

2 - المساهمة في مقاومة البدع والخرافات والأمراض الاجتماعية

انتشرت في أنحاء الممالك الإسلامية في أفريقيا بعض العادات والأمراض الاجتماعية المرذولة . وقد حاول علماء الأزهر جاهدين القضاء على هذه العادات والأمراض . وقد جانبهم التوفيق أحياناً وأحياناً أخرى كانوا يجدون صعوبة في القضاء عليها ، وكان سبب هذه الصعوبات التي يواجهها العلماء في القضاء على هذه العادات ارتباط معظم هذه العادات والأمراض الاجتماعية بالتقاليد الأفريقية ، وأيضاً نتيجة لجهل السكان ببعض القيم الإسلامية بالإضافة لحداثة عهد بعضهم بالإسلام[1].

وكان من أبرز الأمراض الاجتماعية التي ظهرت في شمال القارة انتشار السرقة وقطع الطريق . وقد اشتهر بها أهالي مدينة قابس نظراً لوجودهم في بادية بعيدة عن العمران ، حتى أنهم لا يعتبرون السرقة عيباً ، كما كثر بينهم الاعتداء على الجيران دون مراعاة حرمة الجيرة[2].

كما أن جرائم القتل قد تفشت أيضاً في مناطق الشمال وخصوصاً في مناطق السوس بالمغرب الأقصى ، فقد ذكر القلقشندي أن قتل الإنسان عند هؤلاء كان كذبح العصافير ، بل وصل الأمر نتيجة حبهم للقتل أن أصبح عندهم بمثابة عمل يفتخرون به ، وكلما كثر عدد القتلى كان ذلك مدعاة للفخر[3].

ولم تتوقف العادات والأمراض المرذولة في الشمال عند حد السرقة والقتل فقط ، بل وصلت لصفات أخلاقية أخرى مثل البخل الذي انتشر بينهم ، وحب التنافس والادعاء بالكرم ، وهذه صفات كانت تنتشر بين الطبقات الفقيرة من السكان[4].

---

1 - ود ضيف الله : الطبقات ، ص 5.

2 - ابن حوقل : صورة الأرض ، ص 72.

3 - القلقشندي : صبح الأعشى ، ج 5 ، ص 178 .

4 - المصدر السابق ، ج 5 ، ص 178.

العادات في بقية أنحاء القارة :

أما بالنسبة لبقية مناطق القارة ، فتعددت الأمراض الاجتماعية بينهم ، ولعل من أبرز هذه العادات عادة السحر الذي انتشر بينهم ، لدرجة أن أصبح للسحرة نفوذ كبير بين السكان لدرجة أنهم كانوا أحياناً يأمرون بقتل أحد الناس فيطيعونهم بسهولة . وكان السلاطين في أوقات كثيرة يستجيبون لتحريض العلماء ومنهم علماء الأزهر بقتل هؤلاء السحرة [1]

ولعل من أبرز الصفات المرذولة بين هؤلاء الناس ما شاع بين النساء من سيرهن غير محجبات ، وهذا عمل غير لائق بالنسبة للشريعة الإسلامية ، ولم يتوقف الأمر عند حد سيرهن غير محجبات بل تعدى الأمر إلى تحررهن الزائد وعدم احتشامهن [2] مما حدا بالسلطان أسكيا محمد أن يستشير العلماء في هذه المسألة نتيجة لانتشارها الزائد عن الحد[3] أما الجواري في قصور السلاطين فكن يسرن بدون ملابس [4] .

كما انتشرت عادة قبيحة وهي قيام النساء المطلقات بشراء أزواج لهن ، أي دفع أموال لهم كي يتزوجوهن [5]

كما وُجدت في بعض البلاد الإسلامية مثل سلطنة مالي عادة قبيحة وهي عدم غيرة الزوج على زوجته حتى لو وجدها في خلوة مع رجل أجنبي مما شاهده ابن بطوطة بنفسه وعند القاضي . [6]

---

1 - لم يذكر القلقشندي عالماً أزهرياً أمر بقتل السحرة ولكن بالطبع مادام كان يوجد علماء يحرضون السلاطين على قتل هؤلاء السحرة فلابد أن يكون منهم عالم أزهري نظراً لكثرة العلماء الأفارقة الذين تعلموا في الأزهر . انظر القلقشندي : صبح الأعشى ، ج 5 ، ص 291 .

2 - ابن بطوطة : الرحلة ، ص 443.

3 - المقبلي : نفس المصدر ، ص63.

4 - ابن بطوطة : المصدر السابق ، ص 450 .

5 - هوارد : الرحلات في غرب أفريقيا ، ترجمة عبدالرحمن الشيخ ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ، 1996م ، ص43.

6 - المصدر السابق ، ص 450.

وكان هذا الأمر يحدث أيضاً في سلطنة دارفور حيث كانت الفتيات يُعطين قدراً من الحرية لدرجة أن تقوم الفتاة باستقبال من تحب في حجرتها المخصصة لها من منزل الأسرة [1] .

كما انتشرت الفواحش وخصوصاً في المناطق البعيدة عن المدن دون أن تجد معارضة من أحد ؛ لدرجة أنهم كانوا يعتبرونها من العادات المقبولة اجتماعياً [2].

ومن العادات السيئة ، التي كانت بين السكان حتى على مستوى الحكام ، عادة إهداء الملوك الفتيات الحسان ، حيث كان إذا رُزق أحد السكان بفتاة حسناء كان يقدمها للملك ويتقبلها الملك كهدية [3] .

كما انتشرت عادة الإفراط في تعدد الزوجات ، وكانت هذه العادة منتشرة بين الحكام إذ كانوا لايكتفون بزوجةواحدة أو حتى أربع كما في الشرع [4] بل نراهم يفرطون في التعدد .

ومن العادات السيئة التي انتشرت في غرب القارة الأفريقية الغش التجاري في المكاييل والموازين وأخذ السلع بالآجال دون سداد أثمانها [5] وعدم الاستبراء [6] في البيع أقصد بيع الجواري .

يضاف إلى ذلك تلك العادة القبيحة والغير إنسانية ، ألا وهي تجارة الرقيق التي انتشرت كالنار في الهشيم في معظم أنحاء القارة دون استثناء ، وكانت تتم بطريقة

---

1 - التونسي : تشحيذ الأذهان ، ص 219.

2 - المغيلي : مصدر سبق ذكره ، ص 62، 63.

3 - القلقشندي : نفس المصدر ، ج 5 ، ص 296.

4 - هوارد : نفس المرجع ، ص 43.

5 - المغيلي : مصدر سبق ذكره ، ص 63.

6 - الاستبراء : هو إعلان أن الجارية لاتحمل ولداً حتى لا يتنازع عليه مستقبلاً . انظر المغيلي : المصدر السابق ، ص 63 - 66.

خطف الأولاد من ذويهم وبيعهم في أسواق الرقيق التي كانت منتشرة في كثير من أنحاء القارة[1] يتساوى في ذلك شرقها، وغربها، وشمالها، للدرجة أنها أصبحت تجارة منظمة تحكمها قواعد وأعراف، وكانت توجد مراكز لتجميع «هؤلاء العبيد وبيعهم بطريقة لاإنسانية [2].

أما العلماء الأزهريون فلم يقفوا مكتوفي الأيدي تجاه هذه الأمراض، وكانت وسائلهم في مقاومة تلك الآفات تختلف حسب المتلقين، بالنسبة للمسلمين كان من السهل إقناعهم بترك هذه العادات، أما غير المسلمين فكانوا مجرد دخولهم الإسلام يبدأون في التخلي عن هذه العادات، ويكفي للتدليل على ذلك وكما ذكر السير توماس أرنولد (أن مجرد الدخول في الإسلام يدل ضمناً على الترقي في الحضارة وإنه خطوة متميزة في تقدم القبيلة الزنجية عقلياً وخلقياً) [3]وضرب السير توماس أرنولد مثالاً آخر يدل على مدى تأثير علماء الأزهر في تغيير نمط الحياة في القارة الأفريقية وخصوصاً العادات والتقاليد ما ذكره من أن أحد الرحالة وهو « جوزيف سوسون » زار منطقة السودان الأوسط ولاحظ تحسُّناً في نوعية الملابس التي كان يرتديها السكان فقد أصبحت أكثر احتشاماً[4] وتدل على الوقار وهذا ناتج بلا شك عن جهود العلماء الأزهريين.

أما إذا أعيت العلماء الحيلة في إقناع هؤلاء الأفارقة فكانوا يلجئون للحكام ويحرضونهم على القضاء على هذه العادات باستخدام النفوذ والقوة، مثال ذلك تحريضهم للسلاطين بقتل السحرة [5] نظراً لخطورة هؤلاء ونفوذهم الكبير لدى الناس.

وكان بعض السلاطين يستعينون بعلماء الأزهر ويراسلونهم ويستفتونهم في أحكام

---

1 - الإدريسي : نزهة المشتاق، ص 24.
2 - المصدر السابق، ص 26.
3 - توماس أرنولد : الدعوة للإسلام، ص 396.
4 - المرجع السابق، ص 373.
5 - القلقشندي : صبح الأعشى، ج 5، ص 291.

الدين في بعض العادات التي انتشرت في القارة ، ومثال ذلك الأسكيا محمد الذي راسل السيوطي والمغيلي يسألهم عن حكم الشرع في بعض الأمور التي كانت تسود في تلك الأماكن فقاما بتوضيح ما يجب على الأسكيا فعله في مقاومة تلك العادات[1].

ولكي لانكون مبالغين وحتى نستطيع تقييم دور علماء الأزهر يجب الذكر أن العادات التي كانت تتعارض مع الإسلام ، يمكن محو بعضها بالوعظ والقدوة ، ولكن العادات التي ارتبطت في أذهان الناس بالعادات والتقاليد كانت صعبة المقاومة واستمرت فترة كبيرة حتى العصر الحديث . فقد أشار الرحالة الذين زاروا بلاد غرب أفريقيا في العصر الحديث إلى استمرار بعض هذه العادات مثل شراء المطلقات الأزواج .[2] بمعنى دفع أموال لهم لكي يتزوجوهن (كما سبق القول) . وقد ظلت هذه العادات فترة كبيرة دون أن تُمحى .

وبقاء هذه العادات ردحاً كبيراً من الزمن لا يقلل من جهود العلماء في القارة ، بل يكفي أنهم أصلحوا العادات الخارجة عن الدين بل أصلحوا كل ما يتصل بجوانب الحياة اليومية من حيث الطعام والمسكن والملابس وأصلحوا من مكانة الأسرة في المجتمع ، وأدخلوا عادات جديدة تتعلق بحياة الأفارقة اليومية . وباختصار ساعدوا على تحويل المجتمع الأفريقي من مجتمع بدائي لمجتمع متحضر كان لا يقل في التحضر عن أقرانه في كافة أرجاء العالم الإسلامي[3] .

وقد حاول علماء الأزهر إصلاح تلك الأوضاع الاجتماعية بقدر جهدهم وكان يخالفهم الحظ أحياناً في تغيير أنماط تلك الحياة اليومية ، وأحياناً كان ينالهم الإخفاق،[4]

---

1 - انظر في ذلك : رسالة المغيلي ورسالة السيوطي للأسكيا محمد .

2 - هوارد : مرجع سبق ذكره ، ص 43.

3 - توماس أرنولد : مرجع سبق ذكره ، ص 377.

4 - ذكر بعض الرحالة أن وضع النساء في بعض المجتمعات ورغم الحرية الشديدة التي كن يتمتعن بها ظللن يعانين من عبودية في أداء الواجبات المنزلية ، ولكن لايجب أن يؤخذ هذا الكلام على علاته فكون المرأة ملتزمة بشئون منزلها لا يعني بالضرورة أن تكون في عبودية . انظر هوارد : المرجع السابق ، ص 44.

ونجحوا في جعل وراثة الملك في الأبناء وليس في أبناء الأخوات [1] والبنات كما حدث في سلطنة صنغي ، بالإضافة لإجبار نساء الطبقات العليا على ارتداء الحجاب [2] والنهي عن مخالطة الأجانب لأنه يتنافى مع تقاليد الإسلام . وقد نصح ابن بطوطة بذلك لقاضي سلطنة مالي [3] .

كما أن العلماء الأزهريين لم يكونوا بمعزل عن الطبقات الاجتماعية في أفريقيا بل اندمجوا فيها وكانت علاقة هذه الطبقات بهم علاقات في مجملها التقدير لهؤلاء العلماء والتأثر بهم ومحاولة إشراكهم في شئون الحياة المختلفة .

1 - المعدي : مصدر سبق ذكره ، ص 12 - 15.

2 - مادهو بانيكار : مرجع سبق ذكره ، ص 135.

3 - ابن بطوطة : مصدر سبق ذكره ، ص 45 .

3 - المساهمة في تطوير أساليب الحياة اليومية

أولاً : الطعام والشراب :

تنوعت ألوان الأطعمة التي كان يتناولها الأفارقة من حيث أنواعها وإن كانت قد تميزت بخاصية تجمعها ألا وهي البساطة في طريقة إعداد الطعام أو في تناوله ، أو في نوعية الطعام . كما كان الطعام يختلف حسب البيئة سواء كانت بيئة حضرية أو بدوية . فالطعام عند القبائل البدوية التي تعيش في الصحراء ، كان يتكون معظمه من اللبن الطازج في الصباح ، أما وجبة العشاء فكان يُقدَّم فيها اللحم المقدد . أما طريقة تناول الطعام فكانت تتم باليد دون استخدام ملاعق أو غيرها من الأدوات [1].

وبالنسبة لطعام منطقة أهل الغرب الأفريقي فكان عبارة عن تناولهم الذرة والأسماك والألبان الطازجة كما كانوا يعتمدون أكثر على محصول هو نوع من أنواع الذرة لصناعة لون من ألوان الأطعمة كانت تسمى بالعصيدة ،وقد أكل منها ابن بطوطة ، وكادت أن تتسبب في هلاكه [2] لأنه غير معتاد على أكلها كما كانت تُقدَّم اللحوم المقددة والغرتى [3] .

كما وصف لنا ابن بطوطة ألوان الطعام في منطقة الشرق الأفريقي لدى زيارته لسلطنة مقديشو وبلاد الزيلع ووصف بإسهاب طريقة إعداد تناول الطعام هناك كما وصف لنا نوعاً من المأكولات وهو عبارة عن الأرز المطبوخ بالسمن ، مع إضافة لحوم الدجاج والسمك إليه ووضعه في صحاف خشب كبيرة بالإضافة لنوع آخر من الطعام وهو طبخ الموز في اللبن وإضافة عصير الليمون والفلفل عليه . كما ذكر لنا ابن بطوطة عادات أهالي الشرق الأفريقي في تناول الطعام ، وذكر أنهم يتميزون بحب الطعام والشراهة في تناوله [4] .

---

1 - الحسن الوزان : وصف أفريقيا ، ص 67.

2 - ابن بطوطة : الرحلة ،ص 444.

3 - الغرتى : نوع من الثمار طعمه حلو ويستخدم في القلي . انظر المصدر السابق ، ص 443 .

4 - ابن بطوطة : نفسه ، ص 67.

ومن المشروبات التي كانت سائدة في القارة مشروب الدفنو وكان منتشراً في منطقة غرب أفريقيا ، وهو عبارة عن إضافة الذرة المجروشة إلى الماء والعسل[1] كما عُرِف في بلاد دارفور المزر وهو المسمى في مصر بالبوظة وأم بليل وهو النبيذ الأحمر [2] .

أما عن جهود علماء الأزهر في تغيير الأطعمة والأشربة الغير حسنة فلا يمكن أن ندعي أنها قد ألغيت تماماً ولكن كان يُراعَى عند حضور العلماء ومنهم العلماء الأزهريون أي احتفال عدم تقديم المشروبات المسكرة [3] ، وقد كانت جهود العلماء عبارة عن تغيير العادات المتعلقة بتناول الطعام كحثِّهم على غسل الأيدي قبل الأكل وبعده ، وذِكْر البسملة عند البدء في تناول الطعام ، والأكل مما يلي الإنسان ، ونظافة الأواني التي يُقدَّم فيها الطعام ، وعدم شرب المحرم من المشروبات ، مع غرس قيم إسلامية فيهم مثل الكرم [4] والترحيب بالضيوف حتى في الأماكن التي كانت تتميز بوجود تقشف في طبيعة الحياة . كما كان من نتائج مشاركة العلماء للأفارقة في الطعام الاهتمام بإقامة الولائم والمشاركة فيها مع جميع طوائف الشعب [5].

ثانياً : الملابس :

للملابس وظيفة اجتماعية فهي تدل على الوضع الاجتماعي والاقتصادي لصاحبها، أو تدل على انتمائه ، لذا تنوعت الملابس طبقاً للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية . وهذا القول ينطبق على القارة الأفريقية التي تنوعت فيها البيئات الاجتماعية كما شهدت أيضاً تغيرات اقتصادية وطبيعية .

فملابس البدو سكان الصحارى كانت تتميز بالبساطة ، وهي عبارة عن قطعة من

---

1 - ابن بطوطة : نفسه ، ص 452.
2 - التونسي : تشحيذ الأذهان ، ص 231.
3 - التونسي : مصدر سبق ذكره . ص 231.
4 - الحسن الوزان : وصف أفريقيا ، ص 97.
5 - المصدر السابق ، ص 68.

قماش الصوف، يلفونها حول الجسم ، بالإضافة لعمامة كبيرة حول الرأس . هذا بالنسبة لملابس البدو العاديين ، أما بالنسبة لأشراف البدو فكانوا يرتدون اللثام الأسود [1] الذي كان يغطي الوجه عدا العينين . [2] وبالنسبة للملابس كانوا يرتدون قمصاناً بأكمام عريضة من قماش قطني أزرق اللون[3] أما ملابس النساء البدويات فكانت تتكوّن من ثوب عريض الكُمّين ، بالإضافة للخمار الذي كان يغطي الرأس ويربط طرفه على الكتف بمشبك ودبابيس لكي تمسكه [4] .

أما بالنسبة لمنطقة الغرب الأفريقي فتميزت أيضاً الملابس بالبساطة وإن اختلفت حسب الطبقات ، فملابس أهل كوكو مثلاً كانت تُصنع من الجلد[5] وكان تصميمها بسيطاً يكفي أن يغطي العورة هذا بالنسبة للطبقات الفقيرة ، أما طبقة التجار والأغنياء فكانوا يرتدون الملابس المصنوعة من القطن ، ويرتدون القلانس على رؤوسهم كما كانوا يتزينون بالذهب[6] ، أما الملوك فكانوا بالإضافة لتلك الملابس يرتدون السراويل والنعال[7] بينما وجدت أماكن بعيدة عن العمران كان السكان لايرتدون أيَّ نوع من الملابس [8] .

أما مناطق شرق القارة في سلطنة مقديشو فقد اختلفت الثياب أيضاً كما تميزت بتعددها ، وكانت الملابس عبارة عن فوطة يشدها الإنسان في وسطه ، ويرتدي عباءة مصنوعة من الثياب المصرية ، ويلفون العمائم أيضاً على رؤوسهم[9] .

---

1 – عن عادة اللثام الأسود : انظر هامش رقم (4) ، الفصل الثاني.
2 – الحسن الوزان : مصدر سبق ذكره ، ص 68.
3 – الحسن الوزان : نفسه ، ص 67.
4 – نفسه ، ص 73.
5 – الإدريسي : نزهة المشتاق ، ص 28.
6 – المصدر السابق ، ص 28.
7 – الإدريسي : نفسه ، ص 24 .
8 – الحسن الوزان : نفسه . ص 553.
9 – ابن بطوطة : الرحلة ، ص 170 .

أما عن دور العلماء الأزهريين في هذا الجانب من جوانب الحياة اليومية ونتيجة لكثرة حثهم للسكان على الطهارة وأداء الصلاة في مواقيتها فقد أصبح هؤلاء السكان يهتمون بنظافة الملابس ونتيجة لحثهم الناس على أن يستتروا ونتيجة لمقاومتهم لعادة العري في هذه الأماكن فقد أصبح الناس يرتدون الملابس دليلاً لحثهم على النظافة كان الأفريقي الذي لايملك إلا ثوباً واحداً بالياً يهتم بغسله وتنظيفه ليحضر به صلاة الجمعة [1] لأن الإسلام يأمر بطهارة البدن والثوب .

ثالثاً : المسكن :

كان يراعى في تصميم المساكن ملاءمتها للبيئة وطبيعة الحياة ، لذا نجدها تختلف من مكان لآخر في القارة طبقاً لاختلاف البيئة . فمثلاً في منطقة الشمال الأفريقي حيث تنوعت البيئة ما بين صحراوية إلى بيئة حضرية نجد اختلافاً في نمط المساكن والمباني ففي المناطق الصحراوية وحيث تعيش القبائل ، وكانت المساكن عبارة عن خيام مصنوعة من وبر الجمال ومن ألياف كانت تؤخذ من النخيل ، كما كانت تلك الخيام تفرش في الداخل بحُصر ناعمة[2]. مصنوعة من قش الخيزران الناعم [3] وبالنسبة للمناطق الحضرية كانت المباني تُبنى من الأحجار ومواد البناء الأخرى كالأخشاب ، كما كانت المدن تحتوي على أسواق مسقوفة بالإضافة لتمتعها بطرق فسيحة[4].

أما البيوت في منطقة الغرب الأفريقي ، فكانت تعتمد اعتماداً كبيراً على الخامات المحلية المتوافرة بكثرة مثل الطمي الذي كان يُصنع منه الطوب اللازم للبناء .

كما يلاحظ على هذه المساكن أنها ذات طبيعة دفاعية ، حيث كانت تحاط بالأسوار، وكانت المساكن عبارة عن أكواخ مستديرة مبنية من أعمدة طينية وسقفها مخروطي

---

1 - ابن بطوطة : الرحلة ، ص 450.

2 - الحسن الوزان : المصدر السابق ، ص 67.

3 - المصدر السابق : ص 67 .

4 - Brimingham : Islam in west Africa , oxford , 1962 , p.68.

الشكل [1] كما كان يغلب عليها اللون الأبيض ، ويستخدم في بنائها مادة تخلط بمادة دهنية فتصبح قوية وأقدر على التماسك [2] .

أما بالنسبة للمبانى الحجرية في تلك المناطق فكانت تتميز بها العمائر الدينية وقصر الحاكم بالإضافة لبيوت كبار التجار والأثرياء . والذي أدخل هذا النوع في البناء في منطقة غرب أفريقيا هم الغرباء الذين قدموا مع السلطان منسا موسى بعد عودته من رحلة الحج المشهورة [3] كما كانت تُلحق بالمدن أسواق تتميز بوجود طرق واسعة للمرور [4].

أما بالنسبة لمنطقة الشرق الأفريقي ، فقد زار ابن بطوطة سلطنة كلوة ووصف لنا طبيعة المنازل وذكر أنها تُبنى من الخشب ، كما ذكر طبيعة الطرقات والأسواق بالمدينة ، كما وصف أيضاً مساكن سلطنة مقديشو وشوارعها [5].

رابعاً : الأسرة :

تميَّز المجتمع الأفريقي بأنه مجتمع أموي ، السلطة فيه كانت للأم ، لذا كان من الطبيعي أن يحتل مجتمع المرأة مكانة كبيرة في هذا المجتمع على المستوى الأسري ، كما حظيت المرأة الأفريقية بحرية شديدة وصلت إلى التسيب الخلقي ، فمثلاً في قبائل الطوارق التي كانت تعيش في الصحراء الكبرى ورغم التشدد المعروف في طبيعة هؤلاء البدو إلا أنهم كانوا يتركون لنسائهم الحرية الشديدة في محادثة ومخالطة الغرباء داخل بيوتهن وأمام الأزواج [6] كما كانت المرأة تسير سافرة الوجه [7].

---

1 - الحسن الوزان: وصف أفريقيا ، ص 540.

2 - ابن بطوطة : الرحلة ، ص 443.

3 - الحسن الوزان : المصدر السابق ، ص 540.

4 - Brimingham : op.cit.p.68.

5 - الحسن الوزان : نفسه ، ص 69.

6 - نفسه ، ص 69.

7 - ابن بطوطة: المصدر السابق ، ص 443.

كما لعبت المرأة دوراً هاماً في الحياة السياسية .فقد كان لنساء السلاطين والحكام سلطة وكُنَّ يعملن كمستشارات للملك، كما كانت أم الملك تلقب بالملكة الأم (مادجيرا) كما تركُنَ للنساء الحرية أيضاً في مصاحبة أزواجهن أثناء السفر أو تركه [1] .

أما بالنسبة للأطفال فقد كانوا يُنسبون للأم حيث إنها كانت تتولى شئون الأسرة ، ولذا ارتفعت مكانة الخال في المجتمعات الأفريقية ، كما أن الرجال لا يرثون إلا أبناء أخواتهم بل كان الملوك لا يولون أبناءهم ولاية عهدهم بل كان ذلك لأبناء أخواتهم أو بناتهم[2].

وقد حاول علماء الأزهر إصلاح تلك الأوضاع الاجتماعية بقدر جهدهم وكان يحالفهم الحظ أحياناً في تغيير أنماط تلك الحياة اليومية وأحياناً كان ينالهم الإخفاق [3]. فقد أصبح توارث الملك في الأبناء وليس في أبناء الأخوات أو البنات [4] ، كما وجدت في سلطنة صنغي ، بالإضافة لإجبار نساء الطبقات العليا على ارتداء الحجاب.[5] والنهي عن مخالطة الأجانب لأنه يتنافى مع تقاليد الإسلام . وقد نصح ابن بطوطة بذلك قاضي سلطنة مالي [6] .

كما أن العلماء الأزهريين لم يكونوا بمعزل عن الطبقات الاجتماعية في أفريقيا بل اندمجوا فيها ، وكانت علاقة هذه الطبقات بهم علاقات في مجملها التقدير لهؤلاء العلماء ، والتأثر بهم ومحاولة إشراكهم في شئون الحياة المختلفة.

1 -ابن بطوطة : الرحلة ، ص 443.

2 -ذكر بعض الرحالة أن وضع النساء في بعض المجتمعات رغم الحرية الشديدة التي تُمَنَّ يتمتعن بها ظللن يعانين من عبودية في أداء الواجبات المنزلية ،ولكن لا يجب أن يؤخذ هذا الكلام على علاته ، فكون المرأة ملتزمة بشئون منزلها لا يعني بالضرورة أن تكون في عبودية . انظر هوارد: مرجع سبق ذكره ، ص 44.

3 - السعدي : تاريخ السودان ، ص 12 : 15.

4 - مادهو بانيكار : مرجع سبق ذكره ، ص 135.

5 -ابن بطوطة : المصدر السابق ، ص 443.

6 - بانيكار : مرجع سبق ذكره ، ص 465.

4- علاقة العلماء الأزهريين بالطبقات الاجتماعية الأفريقية

قبل الحديث عن علاقة العلماء الأزهريين بالطبقات الاجتماعية الأفريقية التي تشكّل منها المجتمع في أفريقيا ، يجب ذكر التركيب الطبقي للمجتمع في الممالك الإسلامية الأفريقية ، حيث يمكن التعرف على نوعية هذه العلاقات ومظاهرها التي كانت تسود هذا المجتمع الأفريقي ، وموقف العلماء الأزهريين منها ، فقد تكوّن المجتمع الأفريقي من عدة طبقات وهي طبقات الحكام ، والعلماء ، والتجار ، والأحرار ، والرقيق . وفيما يلي حديث عن علاقة العلماء الأزهريين بكل منها .

أولاً : طبقة الحكام :

كانت هذه الطبقة تحتل قمة الهرم الاجتماعي في المجتمعات الأفريقية وتحتل المرتبة الأولى . ويأتي الملوك والسلاطين على رأس هذه الطبقة . وكان السلطان يعامل في أفريقيا الغربية على اعتبار أنه شيء مقدس وكان هذا بالنسبة للملوك الوثنيين [1] ، أما الملوك المسلمون فكانوا يُعاملون باحترام زائد ولذا كان يتم تعامله مع الرعية من خلال موظف حتى لا يخاطب أي شخص مباشرة . وتلك النظرة المتعالية كان سببها تقديس الناس لهؤلاء الملوك ، كما كان من طقوس الدخول على الملك إهالة التراب على رأس الداخل ، مع تعفير اليدين وتسمى عادة التتريب حتى يظهر تقديره للملك [2].

ولكن بالنسبة لمنطقة الشمال والقرن الأفريقي فلم تكن هذه العادات لها مجال ويكمن السبب في ذلك قرب ممالك الشمال والشرق بالعالم الإسلامي مع تأثرهم به وانعدام المظاهر الوثنية في تلك الممالك ، كما أن عادة التتريب لم تكن مطبّقة على العلماء فكان العالم إذا دخل على السلطان في غرب أفريقيا فإنه يكتفي بالتصفيق والدعاء للسلطان ، والسلطان يؤمّن

1 - مانيكار : مرجع سبق ذكره . ص465.
2 - ابن بطوطة : الرحلة . ص447.

على دعائه . ثم يقرآن الفاتحة معاً [1] .

كما يلي الملوك في المرتبة طبقة الأمراء وكبار موظفي القصر ورؤساء الجند ، وكان من حق هؤلاء تولي الوظائف والمناصب العليا المدنية والعسكرية كما كان لهم حق السيادة على معظم طبقات الشعب وخصوصاً في سلطنات الغرب الأفريقي ، وكانت هذه الطبقة تملك العديد من الرقيق نتيجة لكثرة هبات السلاطين لهم ، كما تمتعوا بنفوذ وثراء كبير [2] . أما عن دور علماء الأزهر في تطوير عادات هؤلاء الحكام فكان يتم هذا الدور عن طريق وعظ هؤلاء وحثّهم على تحرير الرقيق ومعاملة الناس بالحسنى ، ويتضح هذا الدور من خلال الخطابات التي كان يوجهها هؤلاء العلماء للسلاطين . وكانت هذه المراسلات عبارة عن أجوبة لأسئلة معينة تتعلق بالعادات أو عن طريق الوعظ المباشر [3] .

ثانياً : طبقة العلماء :

كانت تتكون هذه الطبقة من العلماء الأزهريين سواء العلماء المحليين أو القادمين من الأزهر إلى هذه السلطنات والممالك .وكانت هذه الطبقة تتمتع بنفوذ كبير حيث كانوا يمتلكون الأراضي ويتولون المناصب العليا [4] ، كما كان هؤلاء العلماء يُعاملون بتقدير واحترام من مختلف الطبقات في المجتمع الأفريقي سواء كانت الطبقات الحاكمة أو المحكومة . كما كانت طبقة العلماء تتمتع بعدة امتيازات مثل إعفائهم من أداء الضرائب [5] وإعفائهم من تقديم الأموال لتجهيز الجيوش وغيرها ، كما كانت هذه الطبقة ترتدي ملابس خاصة بها [6] ، وأحياناً تتشابه ملابسهم مع ملابس الحكام . والسبب الرئيسي

---

1 - التونسي : تشحيذ الأذهان . ص408.

2 - بانيكار : المرجع السابق . ص474.

3 - انظر رسائل السيوطي لملك التكرور.

4 - من المناصب العليا التي كان يتولاها هؤلاء منصب القضاة والعمل كمستشارين للملك . لمزيد من التوضيح انظر ابن بطوطة : الرحلة ، ص 171.

5 - ابراهيم علي طرخان : امبراطورية البرنو ، ص 178.

6 - ابن بطوطة : المصدر السابق ، ص 447.

هذه المكانة التي كان يتمتع بها هؤلاء العلماء هو تقريب الحكام والسلاطين لهم . كما كانت لهم كلمة مسموعة بين الحكام .[1]

ثالثاً : طبقة التجار :

تمتعت هذه الطبقة بمكانة كبيرة نظراً لامتلاكهم الثروة ، بالإضافة لكونهم من ذوي الاتصال بالحكام ، وكان منهم من يتولى منصب رئاسة طائفة فكان يتم تعيينه من قِبَل السلطان ، كما كانوا يمتلكون عدداً كبيراً من الرقيق.[2] وعلى الرغم من عدم اشتراكهم في السياسة والتوجهات السياسية ، كان لديهم دور مؤثر في الحياة الاقتصادية ، كما قاموا بدور مؤثر في الحياة العلمية ؛ وهي إرسال الطلاب للتعلم في الجامع الأزهر وخاصة لأنه كان يوجد بينهم علماء[3] .

رابعاً : طبقة الحرفيين والفلاحين :

وهي طبقة عامة الشعب وكانت تتكوّن من أصحاب الحرف والمهن والفلاحين وأيضاً الرقيق المحررين ، وقد عاشت هذه الطبقة في ظل ظروف قاسية بسبب إرهاقهم بكثرة الضرائب الباهظة وتعرضهم للاختطاف من جانب تجار الرقيق بالإضافة لإمكانية فقدانهم لحريتهم نتيجة الديون المتراكمة عليهم[4] ، مع عدم وجود إمكانية للترقي أو للعمل في المناصب الحكومية .

يضاف إلى ذلك أن هذه الطبقة هي التي تركزت فيها معظم العادات الأفريقية التي كانت لا تتفق وروح الإسلام ، كما أنها كانت تتعرض لكثير من عنت الحكام ، وفي الحروب وغيرها كانوا يتعرضون لتدمير ممتلكاتهم وأراضيهم .

---

1 - مادهو بانيكار : مرجع سبق ذكره ، ص 476.

2 - مادهو بانيكار: المرجع السابق ، ص 478.

3 - حسن إبراهيم حسن : مرجع سبق ذكره ، ص 26.

4 - بانيكار : مرجع سبق ذكره ، ص 478.

خامساً : طبقة الرقيق :

عرفت كل المجتمعات الأفريقية في الممالك الإسلامية نظام الرقيق ، ولم يخل أي مجتمع من هذه المجتمعات من الرقيق .

وكانت وسائل الحصول على الرقيق هي كثرة الحروب بين القبائل ووقوع الكثير في الأسر ، أو من خلال عملية البيع والشراء ، حيث كانت هناك تجارة منظمة للرقيق ، أو عن طريق الهبات . كما كان الرقيق أحياناً يكونون أحراراً عجزوا عن سداد ديونهم فأصبحوا عبيداً نتيجة لعجزهم عن السداد [1].

وقد انقسم الرقيق بدورهم إلى عدة فئات : الفئة الأولى هم رقيق القصر الملكي والذين يعملون في مزارع الملك أو الحاكم ، وهم أعلى مكانة من الرقيق الذين يخدمون في البيوت العادية . وكان لهؤلاء الرقيق الحق في الالتحاق بالوظائف العسكرية والمدنية ، وقد وصل بعضهم في الترقي لدرجة الضباط[2]. ويلي هؤلاء في المرتبة الرقيق الذين يحصلون على بعض الحقوق مثل حق الامتلاك وغيره وكان محرماً بيع هؤلاء الرقيق ، أما الرقيق الذين احتلوا المرتبة الثالثة فهم الذين يعملون في الحرف والمهن ، أما رقيق الفئة الرابعة فهم الرقيق الذين يعملون في خدمة البيوت العادية [3] أما عن علاقة علماء الأزهر بهذه الطبقات فكانت علاقات يميزها الاحترام الشديد لهؤلاء العلماء ، كما أن هؤلاء العلماء الأزهريين ارتبطوا أيضاً بالطبقات الأفريقية المختلفة وتنوعت مظاهر الارتباط ، ومن مظاهر علاقة العلماء بهذه الطبقات:

أولاً : احترام الملوك للعلماء وخاصة الأزهريين منهم :

كان الملوك يقدرون العلماء ويحترمونهم . وكان السبب في هذا الاحترام أن هؤلاء العلماء يمثلون الشريعة الإسلامية ويُعتبرون حراساً على الدين . وهناك أيضاً أسباب

---

1 - محمود كعت : الفتاش ، ص 12 : 14.

2 - عادهو بانيكار : المرجع السابق ، ص 478.

3 - نفسه ، ص 478.

أخرى لهذا الاحترام منها تكتل طبقة العلماء ووحدة تماسكها [1] ، ووقوفها ضد الحكام الظلمة ، مثل وقوفهم ضد ممارسات (سن علي) [2] فقد وقفوا ضد ممارساته بل عملوا على تشويه سمعته لدى المواطنين مما عرّضهم لمحن كثيرة . وأيضاً رفضهم تولي المناصب عند استشعارهم الظلم من الحكام ، وأحياناً كثيرة كانوا لايوافقون على تولي منصب القضاء بل يتهربون منه[3]. كما أن ثراء العلماء من الناحية المالية جعلهم أحياناً أصحاب صوت أعلى من بعض الحكام الذين يلون السلاطين والملوك . [4]

ومن مظاهر احترام الملوك لعلماء الأزهر ، إعفاء العلماء من بعض العادات التي كانت تُتبع في مقابلة الملوك مثل عادة التتريب التي أشرنا إليها ، بل إن بعض الملوك كانوا يقومون وقوفاً واحتراماً للعلماء وحدهم ، وكانت التحية المخصصة للعلماء عند مقابلة الملوك هي وضع يده اليمنى على كتف الملك [5].

ومن مظاهر الاحترام التي كان يبديها الملوك أيضاً للعلماء الأزهريين مشاورتهم لهم وأخذ النصيحة منهم في بعض المسائل التي قد تعترض هؤلاء الحكام مثل المراسلات التي تمت بين اسكيا محمد الأول والعالم السيوطي ، وكان الحكام يستجيبون لتلك النصائح[6].

ثانياً : احترام الطبقات الأخرى للعلماء :

نظراً للمكانة التي تمتع بها العلماء الأزهريون وغيرهم بين الحكام ، ونظراً لكلمتهم المسموعة لدى هؤلاء الحكام ، كان الأهالي في أفريقيا يقدّرون هؤلاء العلماء ويوقرونهم ، وكانوا يعتبرون العلماء حلقة وصل بينهم وبين الحكام لدرجة أن العلماء في أفريقيا احتلوا المكانة التي كان يحتلها الساحر ، وتتمثل هذه المكانة في الاحترام ، حيث كان الناس قبل

---

1 - سعادهو باليكار : الإسلام والوثنية ، ص 499.

2 - السعدي : تاريخ السودان ، ص 64.

3 - التنبكتي : نظرير الديباج ، ص353.

4 - المصدر السابق ، ص 354.

5 - هوارد : مرجع سبق ذكره ، ص 42

6 - القلقشندي : صبح الأعشى ، ج 5 ، ص 296.

ظهور العلماء يحترمون السحرة لأنهم كانوا يقومون بكتابة التمائم والتعاويذ[1] ، وقيام العلماء بهذه المهمة جعل الساحر غير ذي قيمة . كما كان للعلماء كلمة مسموعة بين هؤلاء الناس[2] .

وكان من الأشياء اللافتة للنظر هو عدم تعامل العلماء بتعالٍ مع الطبقات الأفريقية ، بل قووا هذه العلاقات بوسائل منها المصاهرة مع القبائل الأفريقية ، فتزوجوا من كافة الطبقات سواء الطبقات الحاكمة أو الطبقات الشعبية ، مما كان له الأثر في تقوية الروابط بين الفريقين . ويحكي لنا ابن بطوطة عن اثنين من العلماء الذين التقى بهما أثناء رحلته كان أحدهما متزوجاً من امرأة أفريقية هي بنت عم السلطان[3] ، ولم يذكر لنا عن العالم الثاني ممن تزوج ولكن كان متزوجاً أيضاً من امرأة أفريقية ويقيم معها ، وكان النسب أكثر ما يبدو ظاهراً ومنتشراً بين العلماء ذوي الأصول الافريقية نظراً لأنها أوطانهم الأصلية . أما العلماء القادمون من مصر فكان هذا الزواج غير منتشر بينهم نظراً لعدم إقامتهم الطويلة في تلك البلدان[4].

تلك كانت هي أبرز ملامح ارتباط العلماء بالطبقات الأفريقية مما ساعد على بروز دور العلماء الأزهريين في توجيه هذه المجتمعات تجاه القيم الإسلامية وصبغها بالصبغة الإسلامية . ولم يتوقف دور العلماء الأزهريين على الناحية الاجتماعية فقط بل تعداه وتخطاه إلى التأثير في الناحية السياسية حيث برزت جهود العلماء في الحياة السياسية في أفريقيا وقاموا بدور رئيسي في توجيه تلك السياسة .

---

1 - توماس أرنولد : الدعوة للإسلام ، ص 297 ، 298.

2 - الحسن الوزان : وصف أفريقيا ، ص 97.

3 - اسم الذي تزوج ابنة عم السلطان هو محمد ابن الفقيه الجازولي ، كانت هذه الزوجة ترسل الطعام لابن بطوطة. انظر ابن بطوطة : الرحلة ، ص 440

4 - وكان هذا الزواج منتشراً بين العلماء الأزهريين في منطقة الشمال الأفريقي ، حيث كان أغلبهم يطيب لهم المقام في تلك البلدان . انظر مثلاً زواج محمد بن الفقيه الجازولي . المصدر السابق ، ص 440 .

5 - الدور الاجتماعي للأزهر بعد عصر المماليك

ارتبط العلماء الأزهريون بالمجتمعات الأفريقية والتي كانت تنظر لهم بكل تقدير واحترام ، وقدقام هؤلاء العلماء بجهود كبيرة في المجال الاجتماعي بعد عصر المماليك ، وقد كان من أبرز هذه المجالات :

أولاً : رفع شأن المرأة :

على الرغم من أن المجتمعات الأفريقية اشتهرت بتقديرها للمرأة ، ووضعها في مكانة متميزة لعل من أبرزها نسب البعض إلى أمهاتهم . لكن الأزهر أعلى من شأن المرأة العلمي ، حيث قام علماء الأزهر بتعليم البنات حفظ القرآن الكريم ، وكانت الخلاوي تجمع بين الصبيان والفتيات . وكان من نتيجة ذلك ظهور عالمات في الفقه والعلوم الشرعية من أمثال فاطمة بنت جابر[1] ، وعائشة بنت محمد الفضالي[2] ، وبتول الغبشة[3] ، وأمونة بنت عبود[4] .

ثانياً : تنقية التصوف من الشوائب :

تلقّى الكثير من طلبة العلم الأفارقة دروسهم على يد علماء أزهريين متصوفة من أمثال شمس الدين اللقاني ، وناصر الدين اللقاني ، والشيخ الدردير ، والشيخ محمد عليش ، والشيخ إبراهيم الباجوري .

---

1 - فاطمة بنت جابر : هي أخت أولاد جابر الأربعة ، حفظت القرآن الكريم وهي في سن الثانية عشرة عاماً ، وكانت تقوم بتعليم الصبيان في مسجدها بالدقار . انظر محمد سليمان : مرجع سبق ذكره . ص 96، 97 .

2 - عائشة بنت محمد الفضالي: كان أبوها من علماء الفرائض . قامت بتأسيس مدرسة على النيل الأبيض لتعليم الطلاب ، من أشهر تلاميذها الشيخ خوجلي العالم السوداني . انظر المرجع السابق . ص 97 .

3 - بتول الغبشة : والدة الشيخ همجر ، وأخت الشيخ يعقوب . اشتهرت بإجادتها حفظ القرآن الكريم والتجويد ، وكان لها مدرسة خاصة بسنار ، كما اشتهرت بنسخ الكتب العلمية . المرجع نفسه . ص 97 .

4 - أمونة بنت عبود: كانت تقوم بتحفيظ القرآن الكريم ، وتدير مكتبين واحد للصبيان والآخر للفتيات ، وكانت تنفق عليهما من عملها بغزل القطن . نفسه . ص 97 .

وقد أرسى هؤلاء العلماء الأزهريون في نفوس طلبتهم السودانيين أصول التصوف الصحيح ، مما كان له الأثر الكبير في تنقية التصوف من البدع والخرافات التي لحقت به[1] .

ثالثاً : علاقة العلماء الأزهريين بطبقات المجتمع :

ارتبط علماء الأزهر بطبقات المجتمع الأفريقي ، ولم يعش هؤلاء العلماء في معزل عنها . وقد أسهموا في بناء كثير من النهضة في هذه المجتمعات ، وغرسوا في نفوس أبنائها الكثير من القيم والمباديء . وقد ظهر هذا الدور جلياً في إنشاء الصحف التي ساعدت على تنوير المجتمعات مثل صحيفة الرائد[2] .

رابعاً : تقدير المجتمع لعلماء الأزهر الشريف :

كان من نتائج قوة العلاقة بين علماء الأزهر والطبقات الأفريقية ، قيام كثير من الشعراء بالتغنى في أفضال أساتذتهم المصريين . وقد ظهر هذا النوع من الشعر في بلاد سودان وادي النيل منهم على سبيل المثال الشاعر السودانى عبدالله حسن الكردي ، حيث قال :

أهرامُهُم فَوْقَ السَّماءِ مَكَانَةً ... وَهُمْ مَيامِينُ الوَرَى أَخْيَارُ

في كُلِّ جَامِعَةٍ لَهُمْ نشءٌ سَمَا ... بِذَكَاءِ فكْرٍ طَارَ مِنْه شَرَارُ

وَبِكُلِّ حَيٍّ لِلمعَاهِدِ ضَجَّةٌ ... فَالعِلْمُ بيْنَ رُبُوعِهِمْ أَنهَارُ

أَنَّى يَحِيدُ الفَضْلُ عَنْ أوطَانِهِمْ ... وَالفَضْلُ لَيسَ لَهُ سِوَاهُم دَارُ

---

1 - محمد سليمان : مرجع سبق ذكره . ص 91 .

2 - المصدر السابق . ص 118 ، 119 .